

منطقة الجوف بالسعودية في كتابات الرحالة جورج أوغست وَالْنُ Yrjo Aukusti wallin

وآرتشيبالد فوردر Archibald Forder 1261 هـ/1845 م - 1318 هـ/1901 م.

Al-Ġawf (Saudi Arabia) in the writings of the traveler George August Wallin Yrjo Aukusti Wallin and Archibald Forder
1261 AH - 1845 AD / 1318 AH 1901 AD .

د. مطلق بن صباح البلوي¹ أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك، جامعة تبوك، (المملكة العربية السعودية)،

Dr. Mūtlāk bīn Ṣayāḥ el-bālaoui

Associate Professor of Modern and Contemporary History

Tabouk university, Kingdom of Saudi Arabia.

drmotlaq0000@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/02/29

تاريخ القبول: 2024/02/20

تاريخ الاستلام: 2024/01/30

الملخص:

تتناول هذه الدراسة تاريخ الجوف السياسي والثقافي عن طريق دراسة رحلتين لرحالتين غربيين، زارا الجوف في أعوام (1261 هـ/1845 م-1318 هـ/1901 م)، وما بين الرحلتين ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وهو ما ساعد في تبيان هذا التاريخ وأهميته ودور القوى السياسية في محاولاتها المتعددة لضم الجوف إلى إدارتها، وهو ما أسهم بطريقة أو بأخرى في إثراء التاريخ الثقافي لمنطقة الدراسة.

كلمات مفتاحية: جورج وَالْنُ ؛ آرتشيبالد فوردر؛ حائل؛ الجوف؛ الدولة السعودية؛ الدعوة الوهابية (السلفية)؛

عبدالعزیز بن رشید .

Abstract :

This study presents the political and cultural history of Al-Ġawf region by studying two trips for two Western travellers, who visited Al-Ġawf during the years (1261 Ah/1845 AD-1318 Ah / 1901 AD), and between the two trips more than half a century ago, which helped to clarify the importance of this history and the role of political forces in their multiple attempts to annex Al-Ġawf to their administration . This has somehow contributed to enriching the cultural history of the study area.

Keywords: Yrjo wallin , Archibald Forder , Ḥā'il , Al-Ġawf , The Saudi state , Wahhabism (Salafist) , 'Abd al-'Azīz bin Rāshid.

¹ د. مطلق بن صباح البلوي، drmotlaq0000@gmail.com

تقدم هذه الورقة العلمية التي تحمل عنوان: الجوف في كتابات الرحالة جورج أوغست والين (Yrjo Aukusti Wallin) 1261هـ/1845م، و آرثيبالد فوردر (Archibald Forder) 1318هـ/1901م ، دراسة تاريخية لتاريخ الجوف الحديث السياسي والثقافي لرحالتيين غربيين في زمنين مختلفين، وهو ما يعزز قيمة هذه الدراسة العلمية، ويظهر أهميتها، كما أنه من جانب آخر يفسح المجال للدراسة والتحليل ، وأرى أن مثل هذه الدراسة المقارنة تثرى المجال البحثي وترفع المكتبة العربية، لقلة الدراسات المقارنة في مجال كتابات الرحالة الغربيين تحديداً -في حدود علمي-، وعليه جاءت هذه الدراسة للاستفادة من هاتين الرحلتين، من أجل الاطلاع والاقتراب أكثر من تاريخ الجوف الحديث السياسي والثقافي، ومن ثم التعليق على ما حوتهما الرحلتان من معلومات تاريخية عن الجوف ، وقد اتخذت المنهج التحليلي فيما قراءته من معطيات الرحالتين وكتابتهما، فهذا المنهج يسهم -حسب اعتقادي- في تعميق ما أوردها من معلومات ومادة علمية، واستعنت أيضاً بالمصادر والمراجع لأجل إثراء الدراسة ، وقدمت هذه الدراسة بتلخيص رحلتها كل على حدة، ومن ثم التعليق على هذا التلخيص، ولا بد من الإشارة إلى أنني اعتمدت في ترجمة هاتين الرحلتين على ترجمة د. عوض بن عطا البادي، وهو باحث تميز بتوليده ترجمة كتب الرحلات الغربية لمنطقتي: حائل والجوف في المملكة العربية السعودية، كمشروع علمي أنجز منه ما يتعلق بحائل والجوف وهو منشور. ويوجد عمل قادم لإكمال ترجمة ما يتعلق بمنطقة تبوك، وهذا أكمل شمال الجزيرة العربية، كما أخبرني الدكتور عوض لعل من الجيد أنه قد ألزم نفسه مشروع الترجمة بترجمة النص كما هو، دون التدخل والتعليق عليه إلا في حدود ضيقة، لترك للباحثين الاستفادة من هذا النص الخام كما هو.

جغرافيا منطقة الدراسة:

يُقصد بمنطقة الدراسة (الجوف): هي بلدة دومة الجندل، إذ كانت تسمى قديماً اسم الجوف، واليوم اسم (الجوف) يمثل مع البلدات المجاورة منطقة الجوف، وهي إحدى مناطق المملكة العربية السعودية، حيث يرى أحد الباحثين بأن تسمية الجوف جاءت نسبة لقبائل آل عمر الطائية التي استوطنتها في القرن الرابع الهجري، إذ كان يطلق عليها جوف آل عمر. وهي بلدة تاريخية قديمة لها حضور تاريخي سابق للإسلام، وفتحت في العهد النبوي. وهي الآن تعد من محافظات الجوف، فقد انتقلت عاصمة الجوف ومركزها من دومة الجندل لتصبح مدينة سكاكا المجاورة لدومة عام 1351هـ/1933م⁽¹⁾.

تقع منطقة الجوف في شمال وسط الجزيرة العربية بين دائرتي عرض 26-39، شمالاً، وبين خطي طول 42-39، شرقاً⁽²⁾. وشكلت تضاريس المنطقة الطبيعية تنوعاً متميزاً، إذ يوجد بها عدد من الجبال، مثل: جبال الجوبة التي ترتفع إلى (1076) متراً فوق سطح البحر، وتلوى الرحي التي ترتفع إلى (1019) متراً، وجبل طوقة الذي يرتفع إلى (1039) متراً، وغيرها من الجبال⁽³⁾. كما توجد هضبة الطويل جنوب وادي السرحان⁽⁴⁾، ويصب عدد من الأودية في حوض وادي السرحان. وتوجد السهول؛ ومنها سهل بسيطا، الواقع بالقرب من جبل طبرجل وهو في جهة الشمال الغربي من دومة الجندل، ويعتمد سكان الجوف على المياه الجوفية⁽⁵⁾. وقد ساعدت هذه الطبيعة الجغرافية في وجود مجتمع إنساني (بادية وحاضرة) في الجوف.

ساعدت الجغرافيا الطبيعية للجوف على أن تشهد استيطاناً بشرياً قديماً، لتوفّر المياه في أرضها، وهو ما دفع السكان لامتثال الزراعة، كما أسهم موقعها في أن تكون في حقبة تاريخية متقدمة في العصر الجاهلي سوقاً من أسواق العرب المشهورة⁽⁶⁾.

الرحالة الفنلندي جورج أوغست والين Yrjo Aukusti Wallin:

ولد في جزيرة في دولة فنلندا شمال في أوروبا. التحق بجامعة محلية، وأخذ منذ بداية دراسته الجامعية يهتم باللغات الأجنبية ودراسها فدرس اللغات العربية والفارسية والتركية وتخصص فيها في دراسته العليا وصولاً إلى مرحلة الدكتوراة التي كانت أطروحته فيها عن أوجه الاختلاف بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العامية، ثم ارتقى في دراسته حتى أصبح أستاذ كرسي في اللغات الشرقية⁽⁷⁾. وصل الرحالة جورج أوغست والين (1225-1267هـ/1811-1851م) إلى الجوف كأول رحالة أجنبي يزور شمال الجزيرة في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وكان وصوله إليها في 18 جمادى الأولى 1261هـ/25 مايو 1845م، برفقة قافلة يقودها رجال من إحدى القبائل البدوية. قدم والين والقافلة من معان⁽⁸⁾، وهي في طريقها في وسط الصحراء إلى الجوف.

موقع الجوف:

تقع الجوف في وسط صحراء لا يتوفر فيها الماء ويصعب فيها السفر، كما أنها غير متصلة بالمناطق الزراعية والمدنية، وعاقبت المنازعات بين الأهالي فرص التجارة، كما أن الموقع في مأمن من الغزوات الخارجية، غير أنه غير مناسب كمحطة تجارية واتصال، ويمكن القول إن الجوف لم يكن لها تأثير في التاريخ العربي. يتخيل الأهالي أن بلدتهم واقعة في قلب العالم، والواقع أن المسافة بينها وبين الحواضر الأخرى داخل الجزيرة العربية وخارجها متساوية، كان الوصول إليها من الجوف يستغرق سبعة أيام تقريباً.

إدارة البلدة:

تشير المصادر السعودية أن ضم الجوف كان في عام (1208هـ/1793م)⁽⁹⁾، وهي الفترة التي حكم فيها البلدة عبدالعزيز بن محمد آل سعود (1179/1765م – 1218هـ/1803م) الدولة السعودية الأولى، حيث لا يستسيغ حكام الدولة السعودية الأولى وصفهم بالوهابية⁽¹⁰⁾، وهو ما أكدته نفس الرحالة عندما التقى بعدد من أهالي الجوف الذين أخبروه بأن أتباع الدولة السعودية يمقتون وصفهم بالوهابية، وإنما هم يتبعون السلف الصالح. وهدم أحد قادة الدولة السعودية الأولى قبراً قديماً مزيناً بقبة يجلسه الناس على أنه قبر ذي القرنين، وهو ما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التي أتت بها الدولة السعودية الأولى. كما تم تعيين حاكم للبلدة، وحينما سقطت سلطة الوهابيين أمام الباشا المصري، سيطر على الجزيرة العربية عدا الجوف التي أخذت في العودة إلى حالتها الأولى من النزاع وعدم الاتفاق. عزز عبد الله بن رشيد⁽¹¹⁾ سلطته في جبل شمر، ولتكون الجوف تحت حكم شيخ شمر، التي لم يجعل له فيها ممثل مقيم، كما أضحي لكل حي من أحياء الجوف شيخه الذي يحكم ويفصل في الخلافات المحدودة. ولكل حي خطيب ومسجد تُقام فيها الصلوات اليومية وصلاة الجمعة، وكل هؤلاء الخطباء من الجوف نفسها عدا خطيب واحد في حي خدما من حائل ممن تلقوا تعليمهم في المدينة المنورة.

الوهابية:

عادةً يقرأ الخطيب بعد صلاة الظهر بعض أحاديث الرسول ﷺ أو بعضاً من آيات القرآن، أو يفسّر تعاليم الدين في مسائل التوحيد وتحريم اتخاذ أولياء من دون الله، وهذه النقطة هي مثار الخلاف بين الوهابيين والمسلمين الآخرين. فأتباع الدعوة يقرّون بنقاء مذهبهم ويطلقون على أنفسهم لقب الموحدين، مقابل الآخرين الذين يعدّونهم مشركين، لأنهم يشركون مع الله كائنات أقل منه. وهم يتبعون المذهب السلفي للإمام أحمد بن حنبل، كما يرون أن إطلاق كلمة وهابي عليهم من قبل الآخرين العرب ممن هم خاضعون للحكم التركي إهانة لهم.

بيوت أهل الجوف:

بُنيت بيوت الأهالي من الطوب الطيني المجفف بالشمس والمصبوب في قوالب مستطيلة الشكل. والبيوت منفصلة عن بعضها بعضاً انفصلاً عشوائياً وغير منظم، والأزقة فيما بينها ضيقة ومتعرجة. ويوجد في كل حي ساحة مخصصة للقادمين من خارج البلدة من الغرباء والضيوف، إذ ينيخ راحلته في هذه الساحة. وهي في الوقت نفسه مكان لاجتماع الأهالي، إذ يجتمعون لتبادل القهوة حتى مغيب الشمس من كل يوم، ويسكن عددٌ من العوائل كلّ حي، فالأحياء مثل: السعديين يسكن فيها عدد (120) عائلة، وحي الرحيبين يسكنها عدد (70) عائلة، وحي العّالَج يسكنها عدد (40) عائلة، وحي خذماء يسكنها عدد (60) عائلة، وحي الدلهمية يسكنها عدد (20) عائلة، ويوجد خمسة أحياء صغيرة بالجوف يسكنها عدد (17) عائلة، وهي أحياء القراطين، والوادي، وغطلي، والسعيدان، و الجرعاوي (12).

مهن سكان الجوف:

امتهن سكان حاضرة الجوف الزراعة، وتتوفر أشجار النخيل في أرضهم، إذ ينتجون أجود أنواع التمر، ويفضل طعمه على تمر البصرة وبغداد، وهناك مثل يقول: "لا تمر مثل تمر الجوف وتيماء"، وعندما كنت في تيماء وجدت نوعاً واحداً، نوعية مميزة بجودة عالية، ويرجع أهالي الجوف جودة نوعية تمورهم إلى أنهم يسقون نخيلهم ماءً أقل مما يفعله الآخرون، وهم على عكس أهل نجد الذين يسقون نخيلهم كل يوم، فأهل الجوف يسقونه مرةً كل ثلاثة أيام أو أربعة، ومن منتجات الجوف: الفواكه التي تتوفر لديهم؛ التين، والمشمش، والخوخ، والبرتقال، والعنب. وكذلك الخضار التي تزرع بكميات قليلة، وجميعها تسد حاجات الأهالي، كما يمتن قسمٌ منهم الصناعة، إذ يقومون بقطع الأشجار الكبيرة، لتستخدم هاوئناً لطحن القهوة، وتباع في نجد غالباً بسعر يصل إلى جنيه واحد للقطعة الواحدة. ويمتازون كذلك بالعباءات الصوفية السمكة التي يشتهر أهل الجوف بنسجها، وتصدر إلى مكة، إذ يكون عليها طلب في موسم الحج، ويصنعون أيضاً أنواعاً مختلفة من الحصير والمفروشات المصنوعة من الصوف، في المقابل، فإن أهالي الجوف يقاوضون ما ينتجونه من الزراعة والصناعة بما يحتاجون إليه، إذ لا تستخدم النقود إلا نادراً؛ فيقاوضون القبائل البدوية التي تأتي من سوريا أو العراق بالأغنام والزبد والسمن والرز، ويحصلون على حاجتهم من البن من مكة عن طريق جبل شمر، وهم بذلك لا يمتنون التجارة، ولا يخرجون من بلدتهم إلا للحج أو زيارة حائل (13).

مجتمع الجوف:

ينتسب سكان حاضرة الجوف إلى قبائل عدة، وهي قبائل: شمر، وعنزة، والسرحان، والموالي. ومن أماكن متعددة أيضًا من خارج وداخل الجزيرة العربية من القرى. أما بادية الجوف فهم القبائل البدوية المجاورة للبلدة، وفي مقدمتها قبائل الشرارات الذين يعدون الجوف بلدتهم الأصلية ويبقون بقربها قدر الاستطاعة، ويقيمون معظم أيام العام في وادي السرحان. ومن القبائل المجاورة للجوف الجلاس من قبيلة الرولة وخصوصًا عائلي الشعلان والنايف⁽¹⁴⁾. وهم في الصيف يتوزعون على الأراضي باحثين عن المراعي لإبلهم في جوار الجوف، وأحيانًا يذهبون إلى القصيم جنوبًا، وأحيانًا يذهبون إلى الشمال الشرقي إلى حدود العراق. وتقوم هاتان القبيلتان: الشرارات والرولة، بأخذ (خوة)، إذ تُدفع لهم تمرًا من أهالي الجوف لقاء حمايتهم من غاراتهم، فمع أنهم يدفعون الزكاة لشيخ شمر، فإنهم يدفعون الخوة لهاتين القبيلتين أيضًا، فلكل حي متآخٍ مع هذه القبائل. ويعرف عن أهالي الجوف بأنهم متنازعون فيما بينهم، غير أنهم مضيافون للغرباء. يقول والن: (فيما يتعلق بي، فعلي الاعتراف أنه حتى من القبائل العربية المضيفة في الصحراء، لم أقابل أي قبيلة تفوق أهالي الجوف في هذه الفضيلة).

الرحالة أرتشيبالد فوردر Archibald Forder:

زار الرحالة ورجل الدين الإنجليزي أرتشيبالد فوردر (1282هـ-1353هـ/1866م-1935م) الجوف في (رمضان-شوال 1318هـ/ديسمبر 1900م-يناير 1901م)، وأقام فيها ثلاثة وثلاثين يومًا، قادمًا من الأراضي السورية، وهو ما جعله يمر ببلدة كاف⁽¹⁵⁾ ثم إثرة⁽¹⁶⁾ وصولًا إلى الجوف. واستغرق وصوله إلى بلدة الجوف عشرة أيام برفقة قافلة يقودها شيخ بلدة إثرة، وكان قد لقي معارضة من قبل، خشية على حياته واحتمالية تعرضه للقتل بصفته نصرانيًا، ووجد من حاول ثنيه عن السفر ثلاث مرات سابقة، غير أن إصراره المستمر ساعده على بلوغ هدفه⁽¹⁷⁾.

موقع الجوف:

تقع بلدة الجوف في وسط الصحراء، وتمتد ميلين طولًا ونصف الميل في العرض. ومعظم منازلها خلف أشجار النخيل، ما يعطيك انطباعًا بأنها قليلة السكان، إذ يبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة كما يقول حاكمها.

إدارة البلدة:

يحكم الجوف الشيخ جوهري، وكنيته أبو عنبر، وهو النائب لعبد العزيز بن رشيد⁽¹⁸⁾، ومسؤول عن الضرائب، والمقيم بحائل التي تبعد عن الجوف ستة أيام. يسكن حاكم الجوف في قلعة جنوب البلدة، وهي مقر الحكم. والشيخ جوهري زنجي قصير ضخمة البنية، وهو رجل عادل وحازم يخشاه كل من عرفه أو تعامل معه. وعندما قابلته أخبرته بأنني سمعت عنه في الكرك من بدو الجوف.

بيوت أهل الجوف:

بُنيت بيوت الجوف من الطوب الرملي المجفف عدا قلعة مارد القديمة، وبعض المنازل تتكون من ثلاثة أدوار، وسقوفها مسطحة ومحمية بجدران قصيرة، وكل المنازل بلا أبواب لندرة وجود الأخشاب. وجدت أبراجًا قديمة مبنية من الطين المشيد للدفاع عن البلدة.

مهن سكان الجوف:

يعتمد أهالي الجوف على الزراعة، ومن منتجات الأهالي: العنب والمشمش والخوخ والطماطم والبطيخ والفاصولياء والقرع، ويصنعون العباءات وهي عباءات مرغوبة في فلسطين وسوريا، كما يصنعون العقل وكذلك السروج والسجاد. ويعتمدون في الحصول على احتياجاتهم الضرورية -مثل الملابس والقهوة- على القوافل القادمة من مكة وبغداد ودمشق، وليس عندهم أماكن للبيع والشراء.

موقف حاكم الجوف من الرحالة ورجل الدين فوردر :

منذ قدوم الرحالة فوردر إلى حوران والجميع يحذّره من مغبة الذهاب إلى الجوف، لأن هناك خطراً على حياته، غير أنه كان قد عزم على مواصلة مسيره حتى يصل إلى الجوف. أخبر جوهر حاكم الجوف الرحالة بأن قدومه إلى الجوف بمعية خويخان المذهن شيخ قرية إثرة كفيلاً بأن تكون حياته في مأمن من القتل. أمره الحاكم بأن يسكن مكاناً منعزلاً عن حركة الناس، ورافقه في ذلك أحد أولاد الحاكم، فعرض جوهر الإسلام أكثر من مرة، ولم يتقبل فوردر ذلك، وقدّم له عرض سخياً في سبيل اعتناقه الإسلام، ولكنه بقي على دينه. وكان جوهر قد أخبر الرحالة بأنه قد أسلم على يديه ستة من النصاري على أوقات متقطعة، إضافة إلى يهودي، وقد قابل فوردر أحد النصاري ممن أسلموا، أكثر من مرة، ويؤكد فوردر أنه خجل أن يتحدث معه ، وكان يرى كثيرون أن قدوم النصاري شؤم، فوافق ذلك سقوط سقف المبنى على جوهر وهو في سكنه، فأنقذ ولكن كسرت رجله، وهو ما جعل عدداً من الناس يذهبون إلى مكان إقامة الرحالة لقتله بحجة أنه سبب ما حصل، لقدومه إلى الجوف وتشاؤمهم منه، فتصدى عدد من الرجال لذلك ومنعوه، وعندما سألهم عن سبب دفاعهم عنه، أجابوه: "لقد كنا في الهند ورأينا المسيحيين هناك، ويعرف أنهم لا يضرّون أحداً، ورأينا أيضاً ما خلفته الإدارة البريطانية من آثار هناك وفي مصر، وسنساعد النصاري ما استطعنا إلى ذلك، ونتمنى أن يأتي الإنجليز هنا والنصاري، فهم أحسن من المسلمين". والأغلب أن الرحالة يكذب على أهل الجوف. وكان جوهر قد طلب من فوردر المغادرة بعدما عرض عليه الإسلام في آخر مرة، وأخبره بأن السلطان العثماني سيغضب منه إذا تركه يقيم في البلدة.

تعليقات الباحث:

الأهداف والمنهج:

خَطَّ الرحالتان أهدافاً واضحة لرحلتهما إلى الجوف، فالأول، وهو الرحالة وَالْز كان هدفه العلمي واضحاً في ثنايا حديثه وتعليقاته⁽¹⁹⁾ ، وكان أحد الباحثين قد كتب مقالاً عن الرحالة وَالْز ضمن ما يطلق عليه أدب الرحلات، وما خطه يراع الرحالة وَالْز وشوقه الدائم إلى الصحراء وتمنيّه العيش مرة أخرى في الصحراء بعيداً عن أوروبا وصخبها⁽²⁰⁾. ويُعد هذا الرجل باحثاً علمياً متخصصاً في اللغة العربية، ولعل لبُعد بلاده عن الإرث الاستعماري للبلاد العربية العثمانية، إضافة إلى شخصيته العلمية، دوراً في أن تأتي كتاباته بعيداً عن السياسة وأهلها ودوائرها، ويبدو أن قدومه إلى الجوف بشخصية عالم دين مسلم من بخارى، ليكون مدخلاً للاندماج مع المجتمع ، ومن الواضح في كتابة وَالْز عن رحلته هذه، اتخاذه المنهج الوصفي والتحليلي، فقد أخذ يصف الأماكن ثم يعود للمصادر اللغوية والتاريخية ليقارنها بما رآه على أرض الواقع. والجميل أن آراء وَالْز تأتي في سياق فهمه لما يراه دون أن تلاحظ أن خلف هذه الآراء نفساً استعماريّاً أو دينيّاً أو غير ذلك من الدوافع، التي وُجِدَت عند كثير من الرحالة الغربيين الذين زاروا شمال الجزيرة العربية.

وجاء الرحالة الآخر الإنجليزي فوردر ليمثل رحالة من نوع خاص، نظرًا لوضوح هدفه، وهو الدعوة إلى النصرانية في بلاد الجوف في الجزيرة العربية⁽²¹⁾. ويُعد هذا الهدف متكاملًا لشخصية فوردر كرجل دين له نشاطات في بلاد الشام، ولحماسه الديني عاد وأخذ دعمًا ماليًا من منظمة أمريكية تعنى بنشر النصرانية في بلاد العالم، لأجل رحلته إلى الجوف التي لم يدخلها إلا في المرة الرابعة من محاولاته الثلاث السابقة، وخلافًا للرحالة والين المتخفي بشخصية مسلم، جاء فوردر بشخصيته، حيث أقام فوردر ثلاثة وثلاثين يومًا في الجوف، لحق فيها بأيام من شهر رمضان وعيد الفطر -بداية شهر شوال-، فلعل الباحث يرى مواقف من كتابات فوردر نفسه، توضح التناقض الذي يعيشه، ولعل تعصبه الديني يُعد السبب الرئيس في هذا التناقض، فهو في الأخير رجل الدين الذي قديم لنشر النصرانية وبيع التوراة في ديار المسلمين في الجوف. شيخ كاف نفسه هو من كان يريد الذهاب به إلى الجوف لولا قدوم ضيوف في آخر الوقت كما يذكر فوردر في رحلته، على حين أن موقف شيخ قرية إثرة الذي تفاوض معه فوردر ودفع له لأجل أخذه للجوف، كان حريصًا على إثارة موضوع أنه رجل دين، ومن الصعب أخذه معه للجوف لأجل ابتزازه، وهو ما حصل، لذلك قَدَّم له فوردر عرضًا ماليًا لأجل مرافقته للجوف، وهو ما حصل فعليًا، و يميل فوردر في كتابته عن رحلته إلى المنهج الوصفي، بما يراه من الأماكن والأشخاص، وكان بعيدًا حتى عن الاستفاضة في الوصف، نظرًا لهدفه الواضح، وهنا يمكن القول إن منهجه وصفي بعيدًا عن التحليل.

تاريخ الجوف السياسي الحديث:

أشار الرحالة والين إلى ضم الجوف أملاك الدولة السعودية الأولى (1233/1139هـ-1818/1727م) دون الإشارة إلى معلومات أخرى، عدا هدم القبر ونشر أفكار الدعوة السلفية بين أهالي الجوف. وكانت المصادر السعودية المحلية قد ذكرت أن ضم الجوف كان في عام (1208هـ/1793م)⁽²²⁾، ولم يذكر من هو أمير الجوف المُعَيَّن، عدا أن البلدة تتبع أمير حائل في ذلك الوقت، وهو ما يؤكد ارتباط الجوف السياسي بمن يحكم حائل، وهو أمر متعارف عليه في الإدارة السعودية في مراحلها الثلاث، فكانت الجوف تتبع إمارة حائل التي تتبع بدورها إمام الدولة السعودية الأولى في نجد، وكان والين قد أشار إلى إدارة السعودية الأولى في الجوف، وكيف أن الأمن مستتب في زمن الدولة، وشاع العدل على ما أخبره به الأهالي، وهو ما يعني قوة الدولة ووجودها القوي في الجوف. وكان أحد الباحثين قد أشار إلى مرور إبراهيم بن محمد علي باشا⁽²³⁾ القائد العسكري العثماني في الجوف، وهو في طريقه إلى الشام في عام 1234هـ/1819م⁽²⁴⁾، يضاف إلى ذلك أن القائد العثماني كان قائدًا عسكريًا على هدم القلاع، كما فعل في كاف وإثرة، وهي سياسة اتَّبعها مع العاصمة السعودية في الدرعية⁽²⁵⁾.

عادت الجوف في زمن الدولة السعودية الثانية (1240-1309هـ/1824-1891م) في مرحلة مبكرة من تأسيس الدولة عن طريق أمير حائل⁽²⁶⁾، واللافت أن الإدارة السعودية للجوف في هذا الوقت قد اتخذت سياسة مرنة بتفويض أمير حائل عبد الله بن رشيد لإدارة الجوف، والذي قام بعد تعيينه على إمارة حائل بوضع شيخ على كل حي لإدارته، واختيار خمسة رجال منهم يتسلمون الزكاة لإيصالها له في حائل. وهو ما دفع شيوخ الأحياء أنفسهم إلى الاتفاق مع قبائل الرولة والشرارات لحمايتهم من خصومهم مقابل دفع الخوة لهم، وهي عبارة عن تمر. ويظهر أن انشغال الإدارة السعودية بأحداثها الداخلية والخارجية ولا سيَّما في المرحلة الثانية للإمام فيصل بن تركي⁽²⁷⁾، وما مر عليها من أحداث سياسية داخل نجد والتي ازدادت سوءًا بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي، أثَّر في إدارة الدولة للجوف⁽²⁸⁾.

والإدارة السعودية في هذا العهد تختلف عن الإدارة السعودية في العهد الأول، إذ كانت قوية ومباشرة ومركزية في إدارة حكم الجوف. ويقود البحث إلى أن هذه الأحداث في الحقبة السعودية الثانية أوضحت التدخلات لأطراف سياسية أخرى تراقب ما يجري في الجوف، وتتحين الفرص السانحة لأجل السيطرة عليها، وفي مقدمتها قبيلة الرولة وشيوخها من أسرة الشعلان، وكان الأهالي تمردوا على أمير حائل الجديد طلال بن عبد الله بن رشيد (1847-1867م) بعد وفاة والده، غير أنه جرّد حملة عسكرية قادها بنفسه لأجل إعادة الحكم السعودي إليها⁽²⁹⁾، وهي الحقبة التي أعقبت زيارة والين للجوف، وقد أظهرت الأحداث اللاحقة أن ما ذكره ورآه والين ما هو إلا سلسلة من الأحداث السياسية، التي انتهت بالاتفاق بين أمير حائل الجديد محمد بن عبد الله بن رشيد (1289-1314هـ/1873-1897م) الذي كان له دور في إسقاط الدولة السعودية الثانية (1309هـ/1891م)، وبين السلطات العثمانية، على ضمه الجوف إلى إمارته، وقيامه ببناء قصر خزام دلالة على حكمه وحمايته للبلدة ونفوذه المباشر فيها⁽³⁰⁾، وهو أمر يبين دور أهالي الجوف الواضح والحريص على إدارة مصالح بلديهم، وكانت التدخلات السياسية من القوى المحلية، ما يعني أن هناك من يتواصل مع أهالي الجوف ضد سلطة إمارة حائل، بل وهناك من أهل الجوف من يرى أن على الجوف أن تحكم من أهلها.

وهكذا عاشت الجوف أحداثاً تمتد لأكثر من نصف قرن من الزمان؛ أحداثاً سياسية محلية محاولة استغلال انشغال الدولة السعودية الثانية بمشكلاتها الداخلية، لأجل استخلاص الجوف منها⁽³¹⁾، غير أن أهالي الجوف لم يكونوا ليرتكبوا فرصة إلا ويحاولون منازعة الإمارة الرشيدية في حكمها لهم، عبر قيامهم بزيارة السلطات العثمانية في الشام واعتراضهم على إدارة إمارة حائل لبلديهم، مطالبين بأن تكون البلدة تحت إدارة الوالي العثماني في الشام. في الوقت الذي كانت فيه قبيلة الرولة مستمرة في منازعة إمارة الرشيد في إدارتها للجوف، ومحاولة الضغط على المسؤولين العثمانيين في الشام لتبني وجهة نظرهم بضرورة تسليمهم إدارة الجوف بدلاً عن إمارة آل رشيد⁽³²⁾، ولا شك أن السياسة العثمانية أدركت أهمية الجوف من بعد ظهور الدولة السعودية الأولى في وسط نجد، إذ أضحت بوابة ومعبراً لقواتها لمهاجمة المصالح العثمانية في جنوب بلاد الشام وقوافل الحاج الشامي، وهو ما جعلها تدرك جيداً أهمية الجوف.

التاريخ الثقافي:

كان والين و فوردر قد اتفقا على أن الجوف تعيش في عزلة على الرغم مما يمتلكه أهلها من إمكانات؛ بوجود التعليم بوضوح بين الأهالي صغاراً وكباراً. ويعزو فوردر هذه العزلة إلى عدم وجود وسائل الاتصالات آنذاك كالتلغراف. على حين عزا والين هذه العزلة إلى النزاعات الداخلية بين الأهالي، وكذلك إلى بعدها عن طريق القوافل. ولعل هذا الأمر -أي العزلة- لم يكن بالأمر الدقيق في نظر الباحث، فالتاريخ السياسي للجوف يثبت غير ذلك، كما أن السياق التاريخي والزمني يدفع إلى أن تعيش الجوف أوضاعاً كهذه، ويضاف إلى ذلك مرور القوافل التجارية وقوافل القبائل البدوية.

تعرضت الجوف لعدة ثقافات في حقبة قدوم الرحالتين والين و فوردر، وهي ثقافة البادية ثم الثقافة السعودية النجدية في عهدها الأول ثم الثاني وأخيراً الثقافة النجدية الحائلية، وعليه كان الغالب السياسي أو صاحب القوة السياسية ذا حضور ونفوذ وهيمنة وتأثير في الأهالي، ومما يحسب للثقافة السعودية النجدية هو نشر الدعوة السلفية، وهو عامل مهم وأساسي في حياة الجوفيين. ولعل انتشار القراءة عندهم بسبب وجود عدد من الخطباء في مساجد الجوف⁽³³⁾.

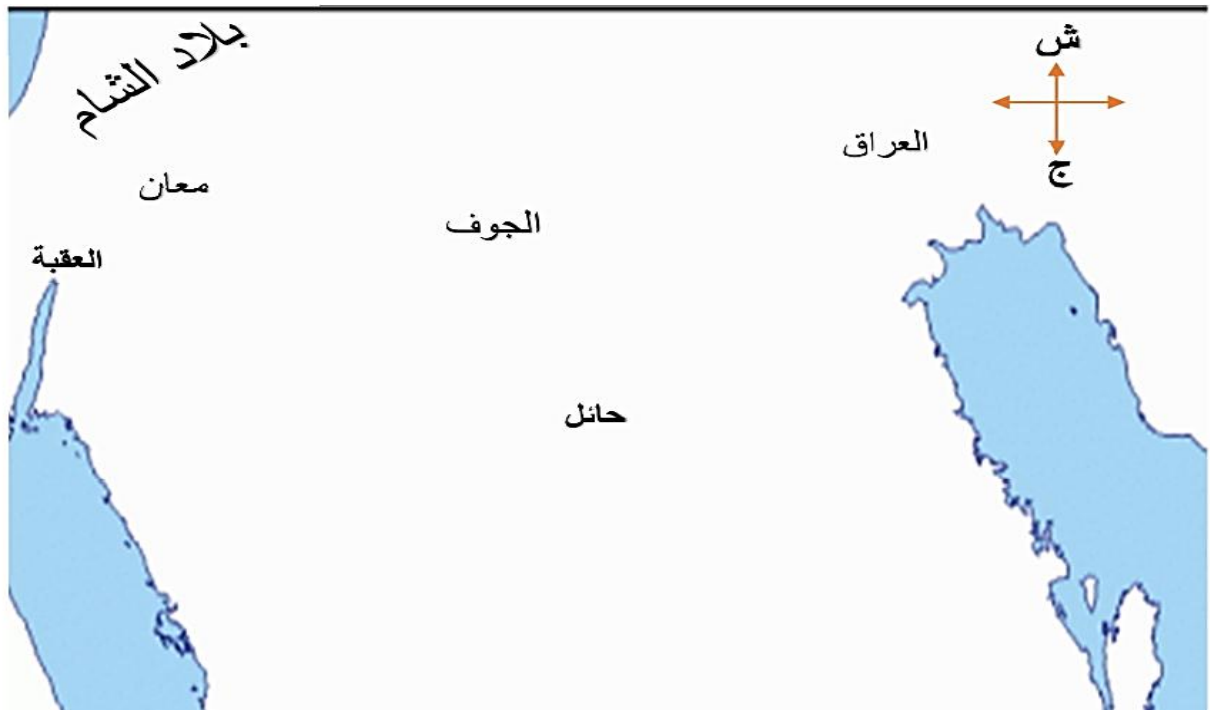
كما تأثر استصلاح الأراضي وزراعتها بالزراعة السورية، وهو ما يعني حضور عادات جديدة من خارج الجزيرة العربية، ولا سيَّما من بلاد الشام، تتجاوز التأثير بطريقة الزراعة إلى عادات أخرى جديدة في المأكل والمشرب والملبس وفي اللهجة المحلية، وهكذا جاءت ثقافة الجوف وأهلها ثقافة متنوعة عبر حقبة زمنية تجاوزت مئة عام، منذ قدوم الدولة السعودية الأولى إليها (1208هـ/1793م) إلى زمن حضور والن ثم فوردر إليها، فبدأ بسكانها الذين أتوا من قبائل وأماكن مختلفة من داخل وخارج الجزيرة العربية، وقبائلها البدوية المجاورة وما دار فيها من تواصل اقتصادي واجتماعي، وزراعتها وإحصائها المحلي وعمرانها الصحراوي.

كل هذا مثل ثقافة جوفية محلية ذات شخصية مستقلة بعدما هضمت هذه الثقافات المختلفة، وكان والن قد أشار إلى اعتزاز أهالي الجوف ببلدتهم، ووصفهم إياها بأنها "جوف الدنيا"، أي مركز الدنيا.

خاتمة:

قدمت هذه الدراسة ملامح مهمة لتاريخ الجوف السياسي الحديث والتاريخ الثقافي، وما كان لهذه الملامح أن تبرز وتتضح لولا وجود هاتين الرحلتين لرحالتيين غربيين في زمنين مختلفين، وما بينهما ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وهو ما ساعد الباحث على استخلاص نتائج مهمة في تاريخ الجوف السياسي والثقافي، ليس هذا فحسب، بل إن الباحث سبر هذا التاريخ لفهم المجتمع الجوفي وأهمية العامل الداخلي ضده، كوجود قوة محلية وعثمانية سعت في مدة ليست بالقصيرة إلى السيطرة على الجوف. وفي ذلك رد على الرحالتيين اللذين يريان أن الجوف تعيش في عزلة، وهو أمر يخالفه الواقع؛ فقوافل التجارة لا تنقطع والتواصل مع الحواضر داخل الجزيرة العربية وخارجها مستمر أيضًا، كما أن المجتمع الجوفي قد أخذ في التشكل والديمومة الثقافية بواسطة قدوم أقوام من جهات مختلفة، وساعد موقعها على قدوم هؤلاء الأقوام الذين شكلوا مع الوقت أحد روافد المجتمع الجوفي المتنوع، وإن كان هذا التنوع بسبب اختلاف الأصول القبلية يشكل صراعًا محليًا تغذيه القوى المحلية المجاورة من قبائل بدوية وإمارات محلية وسلطة عثمانية موجودة في الشام، وعلى الرغم من كل هذا فإن الشخصية الجوفية بملامحها العامة وعمقها الحضري والبدوي والنجدي والشامي لم تكن إلا ظاهرةً بسلوكها وأخلاقها، كما أن تعامل المجتمع الجوفي بشيوخه وأعيانه مع القوى المحلية الأخرى بدا واضحًا، وهو ما ساعد الباحث المتخصص على فهم السلوك السياسي لأهل الجوف في الحقبة اللاحقة من تاريخهم السياسي، حتى دخولهم إلى الدولة الحديثة عبر مؤسسها الملك عبد العزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري (ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي).

الملاحق:



خريطة رقم (1) لمنطقة الجوف⁽³⁴⁾.

الهوامش (الإحالات):

¹ حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، شمال المملكة إمارات: حائل والجوف وتبوك وعرعر والقريات، (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (د.ت.))، ج 1، ص 359-360. انظر أيضًا: نايف بن علي الشراري، منطقة القرية في عهد الملك عبد العزيز 1344هـ-1373هـ، دراسة تاريخية حضارية، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، 1432هـ/2011م)، ص 20.

² ياسمين كامل سليم صالح، جغرافية منطقتي الجوف وحائل في كتابات الرحالة الغربيين، (الرياض: مؤسسة عبد الرحمن الخيرية، 1431هـ/2010م)، ص 96.

³ ياسمين صالح، جغرافية منطقتي الجوف وحائل في كتابات الرحالة الغربيين، ص 98.

⁴ وادي السرحان: يقع شمال الجوف، يبدأ من الأزرق في المملكة الأردنية الهاشمية، وينتهي في قرية أبو عجرم جنوبًا، تجتمع فيه سيول وأودية كثيرة، يصل طوله إلى 380 كيلًا وعرضه إلى 20 كيلًا. انظر: الجاسر، المعجم الجغرافي، ج 3، ص 1336-1339.

- ⁵ خالد المفلح الجوفي، "منطقة الجوف، دراسة الجغرافيا الإقليمية"، (رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود)، 1411هـ، ص 147.
- ⁶ عبد الرحمن أحمد السديري، الجوف وادي النفاخ، ط2، (الرياض: مؤسسة عبد الرحمن السديري، 1426هـ/2005م)، ص 97.
- ⁷ انظر: عوض البادي، الرحالة الأوربيون في منطقة شمال الجزيرة، ص 15-17.
- ⁸ معان: إحدى مدن المملكة العربية الأردنية الهاشمية الواقعة على الحدود الشمالية الغربية للمملكة العربية السعودية. انظر: أنور دبشي الجازي، "بداية معان 1925-1975 م"، (جامعة مؤتة، كلية الدراسات العليا) 2015م، رسالة دكتوراة غير منشورة، ص 18.
- ⁹ حسين بن غنام، تاريخ نجد، حرره وحققه: ناصر الدين الأسد، ط4 (بيروت: دار الشرق، 1415هـ/1994م)، ص 184. انظر أيضاً: عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبد الرحمن الشيخ، ط 2، (الرياض: وزارة المعارف، 1361هـ)، ج 1، ص 193. انظر أيضاً: الشراري، منطقة القريات في عهد الملك عبدالعزيز، ص 40.
- ¹⁰ يطلق عليها الرحالة (الوهابية) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- ¹¹ عُين أميراً على حائل من قبل الإمام فيصل بن تركي (1209-1263هـ/1788-1847م) ضمت في عهده الجوف وتيماء. تولى من بعده ابنه طلال. انظر: عبد الله الصالح العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، (الرياض: جامعة الرياض، مطابع الشرق الأوسط، 1408هـ/1981م)، ص 43-44.
- ¹² الشراري: منطقة القريات في عهد الملك عبدالعزيز، ص 42.
- ¹³ الشراري: منطقة القريات في عهد الملك عبدالعزيز، ص 43.
- ¹⁴ اسم يطلق على سهل ممتد من الجمهورية السورية شمالاً حتى جبل عجلون في المملكة الأردنية الهاشمية جنوباً. انظر: إسماعيل الملحم وآخرون، موسوعة شاملة عن جبل العرب، (دمشق: دار علاء الدين، 1995م)، ص 8.
- ¹⁵ قرية تقع إلى الشمال من الجوف، تم استيطانها عام 1244هـ/1828م واشتهرت بإنتاج الملح، وكانت عاصمة لمنطقة القريات حتى عام 1358هـ/1939م. انظر: عوض البادي، الرحالة الأوربيون في شمال جزيرة العربية، ص 317. انظر أيضاً: الجاسر، المعجم الجغرافي، ج 3، ص 1131.
- ¹⁶ قرية ليست بعيدة عن قرية كاف تم استيطانها عام 1254هـ/1838م. انظر: عوض البادي، الرحالة الأوربيون في شمال جزيرة العربية، ص 317. انظر أيضاً: الجاسر، المعجم الجغرافي، ج 3، ص 1133.
- ¹⁷ عوض البادي، الرحالة الأوربيون في شمال جزيرة العربية، ص 317. انظر أيضاً: الجاسر، المعجم الجغرافي، ج 3، ص 1131.
- ¹⁸ تولى بعد عمه محمد بن عبد الله (1315هـ-1324هـ/1897م-1906م)، وفي عهده دار صراع ومعارك مع الملك عبد العزيز انتهت بمقتله في معركة روضة مهنا. انظر: محمد عبد الله الزعائير: إمارة آل رشيد في حائل، (بيروت: دار بيسان، 1997م)، ص 117.
- ¹⁹ محمد عبد الهادي الشيباني، أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية، بحوث نادرة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، 1421هـ/2000م)، ج 1، ص 545-546.
- ²⁰ عوض البادي: "منطقة الجوف في أدب الرحلة الأوروبي"، مجلة الجوبة، (1435هـ/2014م)، العدد 42، ص 63.
- ²¹ الشيباني، أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية، ج 1، ص 540-541.
- ²² ابن غنام، حسين بن غنام، تاريخ نجد، حرره وحققه: ناصر الدين الأسد، ط4 (بيروت: دار الشرق، 1415هـ/1994م)، ص 184. انظر أيضاً: ابن بشر، عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبد الرحمن الشيخ، ط 2، (الرياض: وزارة المعارف، 1361هـ)، ج 1، ص 193. انظر أيضاً: الشراري، منطقة القريات في عهد الملك عبدالعزيز، ص 40.
- ²³ إبراهيم بن محمد علي باشا (1203-1264هـ/1789-1848م) قاد الجيش العثماني إلى الجزيرة العربية للقضاء على الدولة السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية. انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى 1158-1233هـ/1745-1818م، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، 1999م)، ج 1، ص 340-341.
- ²⁴ الشراري، منطقة القريات في عهد الملك عبدالعزيز، ص 43.
- ²⁵ محمد عبد الله السلطان، بطولات وقائع معركة الدرعية الخالدة 1233هـ، دراسة تاريخية، (الطائف: مطبوعات نادي الطائف الأدبي، 1418هـ)، ص 37-39.
- ²⁶ الشراري، منطقة القريات في عهد الملك عبدالعزيز، ص 48.

- ²⁷ فيصل بن تركي: تولى حكم الدولة السعودية الثانية بعد اغتيال والده من قبل أحد أقاربه، وحكم الدولة السعودية على فترتين الأولى كانت (1254-1250هـ/1834-1838م)، والثانية كانت (1259-1282هـ/1843-1865م). انظر: عبد الله الصالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1426هـ/2005م)، ج 1، ص 134.
- ²⁸ عبد الفتاح حسن أبو عليّة، تاريخ الدولة السعودية الثانية 1256-1309هـ/1840-1891م، ط 4، (الرياض: دار المريخ للنشر، 1411هـ/1991م) ص 195.
- ²⁹ الزعاري، إمارة آل رشيد في حائل، ص 117.
- ³⁰ الزعاري، إمارة آل رشيد في حائل، ص 118.
- ³¹ خليف بن صغير الشمري، "جماعات دون الاعتراف ودورهم في عهد إمارة آل رشيد 1250-1340هـ/1843-1921م"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (2018 م)، ع 27، ص 38.
- ³² الشراري، منطقة القرينات في عهد الملك عبد العزيز، ص 49-50.
- ³³ علي إبراهيم غبان، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة العربية السعودية، (د.م) مطبعة سفير، (1993)، ج 2، ص 87.
- ³⁴ خريطة من إعداد الباحث.